

اقبال-شاعر الحركة و الحرارة

عبد الرحمن الطاهر السورتى

ان هذا المقال ترجمة حرة لمقال المغفور له الاديب الضليح
المولوى صلاح الدين احمد ، باللغة الاردوية، تقدمه الى القراء
العرب لما فيه من فكر قوى لفهم ادب محمد اقبال و فلسفته .

ان لشعر اقبال صدى يبقى دويّه فى الاجواء الاديبة الدينية الى ماشاء الله
و ان اقبال ليعرف من بين معاصريه باسم شاعر الذاتية كما ان ”للرجل المؤمن“، فى
شعره شأنا عظيما و الذى يهمنى فى هذه المقال هى دراسة شعره لنعلم ذلك العامل
الجزرى الذى انجب له هذه الافكار الجميلة الفعالة، و نفخ فى فن الشاعر هذا
الروح النبيل؟

ان الفترة التى نظم فيها اقبال افكاره لم تكن اكثر من اربعين سنة، و فى
خلال هذه المدة نظم شعرا، و ابداع فى اصناف الشعر، و سحر عواطف الشعب،
فملك قلوبهم و ارواحهم، و تنبأ فأتى بمعجزات. نبتت عين شعره فى ربيع الشباب
متزنمة و مرت بقلوات الفلسفة و الحكمة متلاطمة، الى ان انصبت فى محيط العرفان
والايمان، الذى لا ساحل له. و فى غضون ذلك سمت قريحته فجاوزت عن اسلوب
الشعر الى سماء الوجدان و الالهام القدسي، و لكن القدر المشترك الذى نجده فى
فكره و شعره و فنه و الذى نفخ فى ادبه الروح من البداية الى النهاية بدون اى
تغيير هما الحركة و الحرارة، و تدرجت هاتان القوتان بمرور الايام و تقدمه الفكرى

الى أدبه حتى استولنا على ميدان شعره . و من يتدبر ادب اقبال يجد في اول وهلة ان مزيج الحرارة و الحركة هي القوة الوحيدة السائدة على شعره، و ان جلال رسالته و جمالها و فخامتها و كمالها تنبع من هذه القوة .

ان مسلمى الهند ورثوا الأدب و الشعر من العجم، و ان كل شاعر من شعرائهم، و ان كان له اسلوب خاص، لم يخل من التأثر بأسلوبهم و اخذ نصيبه من نضرة شعر العجم و بهجته و نشوته و نشاطه . أما شاعرنا اقبال فانه انتقى من ثروتهم الأدبية خيارها و انتخب خلاصتها و رأس مالها و هي "النار"، التي كانوا يعبدونها منذ آلاف من السنين، فأضاء اقبال بلمهيبها المشتعل الهند المظلمة و حدى قافلة الهند بأحديته النارية الى غايتهم المنشودة كما أحرق بها اندادهم من دون الله و أوهاسهم و أرجاسهم .

و لنلاحظ ان حرقة شعر العجم كانت فيها المفعولية ولم تك تعرف الفعالية، كانت تقدر ان تذيب القلب، غير انها لم تك قادرة على ان تحرق كالبرق الخاطف، كانت تستطيع ان تنير قلب الشاعر، لكنها لم تكن فى استطاعتها ان تنير طريق القافلة، فكان شاعرنا اقبال اقتبس جمرا من نارهم فتحول هذا الجمر عنده الى قوة شعرية حارقة، و الى حرارة تذيب القلب، كما تنبع منها الحياة و يتنور الكون، فتهدى الى الصدق و الحق، و كأن قلب الشاعر قطعة من نور يجتذب كل حين من نور الله الذى هو نور السموات و الارض، لا يكتسب النور فحسب بل يرسله بطريقة يبيد به ظلام الأرض كله من ناحية، و يزيل الجمود و الخمود و التعطل من ناحية اخرى .

ان الحركة قرينة الحرارة، و العلم الحديث اثبت ان احدهما تخلق الأخرى،
الحرارة تنشئ الحركة ثم هي تتولد منها، اذا فمن الطبيعي ان تنمو هاتان الجوهرتان
في قريحة الشاعر جنباً لجنب معاً، و الحق ان شعر العجم كان خالياً من تصور
الحركة الى حد كبير، الا ما نجد في شعر الفردوسي و عرفي، و لكن الشاعر اقبال
استخدم نغمات العرب لملء هذا الفراغ و اعترف به الشاعر بنفسه في قوله :

مراساز اگرچه ستم رسیده زخمه هائی عجم رها
وه شهيد ذوق وفا هون سين كه نوامري عربي رهي
(بانك درا)

خلقت ألوفا ولذا لا تخرج سني الا ألحان و نغمات عربية و ان عبثت بقيثارتني ايدي
العجم .

و يقول في مكان آخر :

انا أعجمي الدن لكن خمرتي صنع الحجاز و كرسها الفينان
ان كان لي نغم الهنود ولحنهم لكن هذا الصوت من عدنان
(شكوى وجواب شكوى)

و مما لا شك فيه اننا لا نرى اثرا ظاهرا للعربية في شعر اقبال و لكننا في
نفس الوقت نعرف حق المعرفة ان الحركة التي هي صفوة شعر العرب و خلاصتها
لا تزال جارية في عروقه، ان شاعر العرب الذي يقضي حياته على ظهر المكر
المفر المقبل المدير معاً، او على الناقة الشمال، تراه حيناً في المعركة، و تارة في مطاردة
الطباء و المها في القنص، و الذي يكون بيته خيمته المنقلة، و مقره "سرج سابح"، .

فلولم يكن شعره كله حركة لم يستحق ان يسمى شعرا . فشعر الصحراء الذى هو
معظم شعر العرب و لبابه، شعر الحركة، و هذا الشعر العربى اثر فى اقبال غاية
التأثير، و ادسج فى شعره الحركة كما نرى فى شعره :

يا ناقسى الخطسارة و ظببتى المعطسارة
و عدتسى والشسارة و المال والتسجارة
و دولتى السيسارة حشى الخطسا قليلا
منزلنا قريب .

كم غصت فى السراب فسى وقدة السباب
و سرت لسم تمهابى فى الليل كالشهباب
و النسوم عنك نابى حشى الخطسا قليلا
منزلنا قريب .

اسا ابران فهى فى غاية الخصب، و البرد هناك قارس، فرغبتهم الى النار
و الشمس شديدة، و هاتان الظاهرتان امتزجتا فى شعر اقبال امتزاجا، و نفخ فى
جسم الشعر روحا جديدة اخرجته من عالم الجمود و الابس، الى الحركة و الأسل،
و من الخريف الى ربيع النشاط و العمل . اخذ اقبال حرقه العجم و حرارتهم
الباطنة، و اخذ حركة العرب و تنقلهم، فخلطهما فى شعره، و جعلهما ينبوعا لحياة
الامة التى خلقت للناس .

ان للمؤمن العجيب الشان كل حين جديد شان و آن
هو فى قوله السديد و فى الفع سل على الله واضح البرهان

هو ترب سما يجاور جبريل و يأبى الحلول في الأوطان
 لست تدرى بسره فتراه قارئاً و هو صورة القرآن
 هو برد الندى بقلب شقيق و بقلب البحار كالطوفان

كان هذه الأشعار رجز الملحمة عند العرب، غير ان سمو المعنى و اندماج
 الحركة بالحرارة قواها و حولها الى العالمية .

ان كل قارىء او باحث يريد ان يبحث في قوة شعر اقبال و سببها، يصل الى
 نتيجة، ان رجاها لا تدور الا حول قطب الحركة و الحرارة، و هما أساس شعره و قواسه،
 و لهاتين القوتين تعبيرات مختلفة في شعره لا تقل عن مئات، و هي لاتخفى على باحثي
 أدب اقبال و فلسفته . حقا ان هذا الموضوع لجدير بان يستقل له الكتاب الضخم،
 اذلا تكاد توجد صفحة من دواوين اقبال الا و نجد فيها ناحية من نواحي رسالة
 اقبال التي تختص بالحركة و الحرارة، و ليس فيه اى مبالغة، بل الغرابة كل الغرابة
 اذ لم يعرف باحثو أدبه هذه الظاهرة و لم يدركوها فيه .

ان الاشياء التي يبرزها اقبال كرموز لافكاره و يكرر ذكرها حيناً لاخر في
 شعره ليست الامظاهر لهاتين الظاهرتين "الحركة و الحرارة"، و لها صلة متينة
 بهما إما ايجابيا و إما سلبيا . فانك ترى في الطائر الجارح المحبوب لدى اقبال
 و الذي تجد ذكره كثيرا في شعره : "الشاهين او العقاب او الباز او النسر،
 مثلا لتجسيم هاتين القوتين، فانه منتصف بهاتين الصفتين الحركة و الحرارة
 في وقت معاً، يقول اقبال عن لسان طائره المحبوب :

"انى انعزلت عن ذلك العالم الطينى الذى يسمى فيه الرزق بالماء و الحب،

و يعجبني الصحراء الواسعة التي تبعث القوة في المجاهدين، للضربة القاضية،
و لست بجائع الى لحم الحمام و العصافير فان حياة الباز هي حياة زهد و شهامة،
و ان خطفى و رجوعى ثم كرى و فرى و اقداسى و احجاسى انما هي حيلة لابقاء
الحرارة فى دسى، و ان الحدود و الثغور التي تنتهى الى المشرق و المغرب هي
دنيا الكراوين، و انما دنياى هذه القبة الزرقاء التي لا نهاية لها .

و فى موضع آخر :

”قال الباز لفرخه : ان البلوغ الى السماء العالية هين على قوادىك، فاعلم
ان الشباب معناه الاحتراق فى دم نفسك، و ان مر الحياة يحلو بعمل دائم
و جهاد مستمر، و اعلم يا بنى ان اللذة التي توجد فى المطاردة و الانقضاض
لاختطاف الحمام لا تكاد توجد هي فى لحم الحمام نفسه،“ .

ان الشاهين فى نظر اقبال انما هو مثل عال لنضال دائم و كفاح دائم
و جهاد مستمر و علو فى الطيران و حب السمو و بعد النظر و لذلك تراه يضع
الباز كمثال اعلى امام الشبان و عندما يذكر اقبال الشاهين (او العقاب او الباز)
يذكر سعه بالتكرار الدم هذا الدم الحار الذي هو المظهر الاخر فى فكر اقبال
و الذى كثيرا ما يذكره لنا، فان الدم فيه الحركة و الحرارة، يقول اقبال :

سن كان فى جسده الدم فلا خوف عليه ولا حزن، و اذا كان الدم فى الجسد
فلا وهم فى القلب و لا وسوسة فى الصدر، ان سن ظفر بهذا المتاع العالى فليس
له حاجة الى الذهب و الفضة و ليس به خشية الاسلاق و الافلاس .

و سن هنا ينتقل ذهن القارىء الى الشقائق لمشابهتها الدم، وهي ايضا

زهرة محببة الى اقبال و نرى هذه الأزهار كثيرا ما تتفتح في بستان كلاس، حتى نجد انفسنا ونحن نقرأ ديوانه كأننا في ارض الشقائق . وهذه الشقائق في رأى اقبال كأنها حرارة كائنة تحت الارض اندفعت بقوتها فظهرت فوق الارض شقائق، كما ان الشفق عنده مظهر حرارة السماء .

و يقول اقبال :

يا شقائق الصحراء كلانا مسافر ضل عن الطريق . ان هذه الصحارى والوادية خالية عن الكليم (موسى) و الا فأننا نار سيناء و أنت نار سيناء .
يرى القارىء في هذه الايات صور مختلفة من الحركة و الحرارة، الشقائق، المسافر و نار سيناء و يرى قارىء اقبال نفس هذه الفكرة تظهر و تتمثل في البراعة، تلك الحشرة المتواضعة اللامعة كالشرارة و يستغرب القارىء عندما يرى ان اقبالا نظم لهذه البراعة خمس قطعات كلها يبين لك لمعان هذه الحشرة و حركتها و حرارتها .
وكذلك يرى القارىء في قصائد اقبال حوالى عشر قصائد و موضوعها واحد، و هى الشمس و حرارتها، يذكر فيها اقبال الشمس و أخبارها و كيف تمنح العالم الحرارة و الحركة .

و خلاصة القول انك لا تكاد تجد في شعر اقبال فكرا مجسما ممثلا سواء كان صغيرا أو كبيرا الا وهو مثل من الحركة و الحرارة، اما باحداهما أو بكليتهما، ولا تجد اقبالا يفرق في هذه الناحية بين الشمس و البراعة، و من العجب انه لم يجد شيئا يمثل به فكره الا ما كان فيه الحركة و الحرارة، و ذلك دليل على اصابة نظره .
و اليكم بعض الأمثلة المنتشرة في شعره :

في ديوانه الاول بانك درا (نداء الارتحال) نرى رثاء اقبال لأمه، و يظهر أن يكون هذا الموضوع خاليا من الحركة و الحرارة لما فيه من الحزن و الكآبة، و لكنك على العكس ترى في هذا الرثاء من الحركة و الحرارة ما يثير اعجابك، يقول اقبال فيه :

ان عين بذر الزهرة تحت حجب الاوراق متيقظة و ما اشد اشتياقها الى النمو والظهور — ان شعلة الحياة التي هي محتفية في هذه الحبة مضطرة على اظهار نفسها .

و ان يرودة القبر لا تقدر ان تخدم هذه الشعلة، بل هي تظهر بصورة الزهرة على القبر و كأنها وصلت بالموت الى بقاء خالد .

و كذلك ترى اقبال يقول في قصيدة عنونها ”طلوع اسلام“ :

ان زوايع الغرب و فيضاناته جعلت المسلم مسلما كاملا كما ان اضطراب اسواج البحر يربى اللآلى في الاصداف .

و كذلك يقول في ”ساقى ناسه“ :

اسقى الخمر التي تحرق الحجاب و التي تنير الحياة . . .

ايها الساقى ! ارفع الحجاب عن هذا السر و حرض القنبرة الضعيفة على ان تقاتل الباز . يا للخسارة ! قد خدمت نار العشق و لم يبق من المسلم الا كومة من رماد . . . اتفهم ما هو سر الحياة ؟ انما هو شوق الطيران . . ان الحياة كلها سفر، نزول و ارتحال، و ان الحياة تحب السفر اكثر من القرار، ان السفر هي الحقيقة و الحضر هو المجاز . و ليس في الدنيا قرار الا للتغير والتبدل و الحركة و الحرارة .